

سلسلة النقد الأدبي والتطبيقي

« ١٢ »

محمد علي أبو صفاة

M. LITT.

في النقد الأدبي من جامعة أكسفورد بالملكة المتحدة
عضو هيئة تدريس بالجامعة الأردنية بعثات

في الذوق الجمالي

لمناظرة ابي سعيد السيرافي و ابي بشر

متى بن يونس القنائي في مجلس الوزير

أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات سنة ٣٢٦ هـ

مكتبة المحاسب
عمّان

دار الجليل
بيروت

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة النقد الأدبي النضبي

« ١٢ »

محمد علي أبو حمدة

M. LITT.

في النقد الأدبي من جامعة أكسفورد بالملكة المتحدة
عضو هيئة تدريس بالجامعة الأردنية بعمان

في النذوق الجمالي

لمناظرة ابي سعيد السيرافي و ابي بشر

متى بن يونس القنائي في مجلس الوزير

أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات سنة ٣٢٦ هـ

مكتبة المحاسب
عمان

دار الحكيم
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ
عبد الرحمن البخاري
أسكنها الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم ...

... وبعد :

فما كنت أجتاز الحضارة الاسلامية في مسيرتها الكبرى في
دّرسٍ أدبي ، أو بلاغي ، أو نقدي ، أو تحليل للنصوص ، أو
رصد لقرائح العبقريات الاسلامية في الدراسات الأدبية إلاّ وكانت
مناظرة أبي سعيد السيرافي لأبي بشر ممتى (بتضعيف التاء

وفتحها) تتراءى في عينيَّ (بتضعيف الياء المتطرفة وفتحها) ،
جوهرةً كريمةً في عقلا (بكسر العين المهملة) ، الحياة الثقافية
الاسلامية .

وتتبع قيمةً هذه المناظرة - في رأي المتواضع - من وقوعها
على مفترق الطرق في الحياة العربية الاسلامية بكل صنوف
نشاطها ، ومضامين أحوالها .

فهي اولا كانت في وزارة ابن الفرات قبل أن تقع بغداد
فريسة المطامع الأجنبية من بويهية وسلجوقية ، وما استتبع ذلك من
نكبات واهوال وأنكال كانت المقدمات الطبيعية لغزو المغول
واجتياح العالم الاسلامي .

وهي ثانياً كانت قمة الصراع بين تيارين ثقافيين كانا قد تمايزا

(١) أنظر تفصيلات ذلك في كتابنا :

« النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع الهجري » ،
دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت : ١٩٦٩ م .
ص ١٢ وما بعدها .

كل التمايز^(١) بعد سلسلة من المكائد السياسية والعسكرية والاقتصادية والشعبوية، ليس في ميادين القتال وحدها، ولكنها في ميادين الحياة الفكرية والثقافية والعلمية .

ينبئكَ بها وبأمثالها ثورة أبي مسلم الخراساني، تلك التي كانت دينية الظاهر والشعارات^(٢)، وكان سيرُها ودينُها قتلَ العرب^(٣)، وما أعقبها من تدفق أمواج آل برمك، وآل سهل،

(١) أنظر :

د. محمد مندور : « النقد المنهجي عند العرب » (دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة . بدون تاريخ) .
ص ٢٩ .

(٢) أنظر :

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : « تاريخ الرسل والملوك » .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . (دار المعارف . القاهرة :
١٩٦٣ - ١٩٦٦ م) ج ٧ ص ٣٨٠ . صيغة البيعة في قرية
الهاشمية .

(٣) المصدر ذاته ج ٧ ص ٣٦٩ .

« رسائل نصر بن سيار إلى مروان بن محمد بعلمه حال أبي مسلم
وخروجه وحقيقة أمره » .
ثم قصيدته المعصاة :

[أرى بين الرماد وميض جمر]

فأحج ربان يكون لهاضرام]

وآل طاهر .

ثم ما كان من الجفوة بين الأمين والمأمون ، وما كان من الجفوة المصطنعة بين اهل الاعتزال والفقهاء حول مشكلة خَلْق القرآن التي دَبِر لها في الحفاء عناصر لم تُرد خيراً ، لا بالاسلام ، ولا بالعرب .

ثم تلك الجفوة التي كانت بين الخليفة المقتدر وقائده مؤنس ، والتي انتهت بقطع رأس الخليفة المقتدر ، ورمي جثته على قارعة الطريق^(١) .

واما ثورات بابك الخُرُمي ، وما زيار ، والزط ، والقرامطة ، والفتن المصطنعة بين أهل السنة والشيعة التي كان يدبرها رجال الخبايا في دولة آل بويه^(٢) والتي كانت تعمل (بضم التاء)

(١) أنظر :

ابن الطقطقي : « الفخري في الآداب السلطانية » (مطبعة محمد علي صبيح . القاهرة : ١٩٦٢ م) ص ١٩٣ .

(٢) أنظر :

« النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري » ، ص ١٢ ، وما بعدها .

تخريباً في لحمة (بضم اللام) البنية العربية الاسلامية بما لا يخفى على المسلم الحصيف - فحدث عنها ولا حرج .

وقد آلت الامور في بغداد في القرن الرابع الهجري وما بعده إلى نحو ما يحمله المقدسي :

« انه (أي العراق) بين الفتن والغلاء ، وهو في كل يوم إلى وراء ، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء مع ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤون ثقيلة » .^(١)

وهذان التياران المتمايزان كانت الترجحات الاجنبية قد لعبت الدورَ الكبير في إظهارهما .

وفي الوقت الذي كان الخلفاء المسلمون يحثون على نقل علوم الاولين والآخرين بحكم ما أريد للحضارة الاسلامية ان تكونه وارثة للحضارات ، وخاتمة الرسالات السماوية ، ويحكم ما قام به

(١) المقدسي : « أحسن التقاسيم » (ليدن : ١٩٠٦ م) ص ١١٣ .

وانظر :

د . عبد العزيز الدوري : « دراسات في العصور العباسية المتأخرة »

(مطبعة السريان . بغداد : ١٩٤٥ م) ص ٢٩٠ .

القرآن الكريم من دفع المسلمين « دفعاً إلى مختلف مجالات المعرفة في الكون »^(١).

كان هنالك مراكز « تشرنق » ثقافي تجمع حول الاديرة مستفيدة من ريع الوقوف الكثيرة التي نجح اصحابها في التربيع عليها تحت طائلة الممتلكات الدينية الخاصة .

ولئن بدا هذا التشرنق غير ذي بال في بدايات الفتوح الاسلامية إلا أن الحياة الثقافية قد أخذت تدبّ في هذه المراكز بحكم ما بدا يفيض عليها من جرايات الدولة السخية ، ومن اعطيات الذهب الخالص ، ومن الاستفادة من مزايا التخصص العلمي في المواقع المختلفة .

ناهيك عن النفسية المتطاحنة التي كان يقدر عليها الاعاجم في دواوين الدولة ، ولا يستطيعها ابناء العرب بحكم ما كان ينزل على

(١) من مقالة اشيع الأزهر د. عبد الحليم محمود بعنوان : « الإسلام والعلم » .

(مجلة البلاغ عدد ٣٧٦ تاريخ ١٧ - ١٠ - ١٩٧٦ م)

هؤلاء الموظفين من إهانات ومَذَلَّة^(١).

ولما أصبح هؤلاء متنفذة الدولة والقائمين على تسيير دِفْتِهَا بدأت الرؤوس الفكرية من اهل الكيد للإسلام والعرب تجاهر بالمعصية وتُزري على الثقافة العربية الاسلامية، وتدخل في محاولات تشويه ثقافي في أكبر غزوة « أحزاب » ثقافية منظمة اجتمع فيها جميع العناصر الحاقدة على الاسلام - مع ما كان بقي من شرادم مشركي العرب الذين يستوي عندهم النيل من العرب والنيل من الاسلام .

فهذا أبو حيان التوحيدي يتحدث عن عصابة كان من مؤسسيها أبو سليمان محمد بن معشر البيستي ويعرف بالْمَقْدِسِي ، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني والعموي وغيرهم :

« زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنّفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء

(١) أنظر :

د. سيد نوفل : « البلاغة العربية في دور نشأتها » (مكتبة النهضة

المصرية . القاهرة : ١٩٤٨) ص ١٧ .

الفلسفة : علميها وحملتها ، وأفردوا لها فهرستاً وسموها رسائل
إخوان الصفاء ، وخلصان الوفاء ، وكنتموا أسماءهم ، وبتوها في
الوراقين ، ولقنوها للناس ، وادّعوا أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء
وجه الله عزّ وجل وطلباً رضوانه ليخلصوا الناس من الآراء
الفاسدة التي تضر النفوس والعقائد الحبيثة التي تضر أصحابها ،
والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها ، وحشوا هذه الرسائل
بالكلم الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق
الموهمة .^(١)

ويقول أبو حيان التوحيدي في الوقوف على هذه الرسائل :

« قد رأيت جملةً منها ، وهي مبثوثة من كل فنٍ نتفاً
بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات ، وكنائيات ، وتلفيقات ،

(١) « الإمتاع والمؤانسة » ، تصحيح : أحمد أمين وأحمد الزين .

(المكتبة المصرية ، بيروت - صيدا ، (مصوّر عن طبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر . القاهرة : ١٩٥٣ م) .

ج ٢ ص ٤ - ٥ .

وتلزيقات ، وقد غرَّقَ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها .
وحملت عدَّةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني
(محمد بن بهرام) وعرضتها عليه ، ونظر فيها أياماً واختبرها
طويلاً ، ثم ردّها علي وقال :

« تُعبوا وما أُغنوا ، ونصبوا وما أُجدوا ، وحاموا وما
وردوا ، وغنوا وما اطربوا ، ونسجوا فهللوا ، ومشطوا فلفلوا ،
ظنوا ما لا يكون ، ولا يمكن ولا يستطيع ؛ ظنوا انهم يمكنهم ان
يدسوا الفلسفة - التي هي علوم النجوم والاخلاق والمجسطي
والمقادير ، وآثار الطبيعة ، والموسيقى التي هي معرفة النغم
والايقاعات والتنقرات والاوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال
بالإضافات والكميات والكيفيات - في الشريعة ، وان يضموا
الشريعة للفلسفة . »^(١)

ويعقب أبو حيان التوحيدي على ذلك بقوله مشيراً إلى خبث
المقصود والكيد الذي يراد .

« على ان وراء هذه الطوائف جماعة ايضاً لهم مأخذ من هذه

(١) المصدر ذاته ج ٢ ص ص ٥ - ٦ .

الاغراض، كصاحب العزيمة، وصاحب الطلسم، وعابر الرؤيا، ومدعي
السحر، وصاحب الكيمياء ومستعمل الوهم. ^(١)

ويسوق أبو حيان التوحيدي تساؤل رجل إسمه الحريري (غلام
ابن طرارة)، وهو (أي الحريري) يغمز من هوية هؤلاء الذين
خلطوا هذه المقولات يقول :

« حدثني ابي الشيخ : على ايّ شريعة دلّت الفلسفة ؟
أعلى اليهودية ، أم على النصرانية ، أم على المجوسية ، أم على الاسلام ،
أم ما عليه الصابئون ؟ فإنّ ها هنا من يتفلسف وهو نصراني كابن
زرعة وابن الخمار وامثالهما ، وها هنا من يتفلسف وهو يهودي ،
كابي الخير بن يعيش ، وها هنا من يتفلسف وهو مسلم ، كابي
سليمان والنوشجاني وغيرهما ... فما بالناس لا نرى أحداً منكم يقوم
بأركان الدين ، ويتقيد بالكتاب والسنة ، يراعي معالم الفريضة
وظائف النافلة ؟ » ^(٢)

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٨ .

(٢) المصدر ذاته ج ٢ ص ١٤ .

ويضيف ابو حيان التوحيدي اقتباسه لقولة الحريري في هذه المنظمات المشبوهة يقول :

« ... وإنما هذا من نسج القدّاحين في الاسلام ، الساترين على انفسهم ما هم فيه من التهم ؛ وهذا بعينه دبره الهجريون بالأمس ، وبهذا دندن الناجمون بقزوين وبثوا الدعاة في اطراف الأرض ، وبذلوا الرغائب وفتنوا النفوس . »^(١)

فأما الاسلام فقد حماه ربّ العالمين بما اودعه فيه خصائص الوضوح والصفاء والتكامل والمراوحة بين اساليب التقرير وجماليات التمثيل والمجاز والاستعادة ، وما عبّره الرسول ﷺ من بيان القرآن الكريم قولاً وعملاً .

وإذن فلم يَبْقَ غير الثقافة العربية واللغة العربية يمكن أن تكونا مرمىً لسهام هؤلاء الألداء .

(١) المصدر ذاته ج ٢ ص ١٦ .
دندن الذباب : إذا صوت وطمّ .

فطفق هؤلاء يسخرون من معيشة العرب ، ومن ماضي العرب ، ومن ثقافة العرب ، ثم من ديوان العرب الثقافي وسجلهم الادبي وهو الشعر .

وإذ قد نشأ في بيوتات العرب من يُحسن ان يكون موهوباً في الشعر من مثل ابي نواس وابي العتاهية وبشار وابن الرومي ؛ فقد انتصر لهؤلاء مئات الكائدين من متشردمة الحاقدين على الاسلام ودولة الخلافة .

وجعل هؤلاء يكيلون لأولئك أعلى درجات الشناء والتقريظ والاطراء ، ليس حُباً في إحقاق الحق ، ولكن رفعا لهم على حساب المواهب الشعرية والأدبية عند العرب - تماماً كما فعل لويس شيخو وهو يتلقت اشعار الشعراء من كان احدهم قد كانت جدته لابنة عم اخيه من ابيه - نصرانية ، في كتابه « شعراء النصرانية » .

ومع اعتراف الجاحظ ان شعر ابي نواس وبشار وأضراهما هو في العيوق فقد قال :

« والبديع مقصورٌ على العرب ، ومن أجله فاسقت لغتهم كلَّ

لغة، وأرَبْتُ على كلِّ لسان،^(١).

ومع اعتراف الجاحظ بعلوم اليونان ومعارفها، فقد تناول أرسطو، بالأسلوب التهكمي الساخر حين عرَّض إلى منطقته (أرسطو) قال :

« ألا ترى ان كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم ، لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء العرب لما فهموا أكثره ؟ »^(٢)

وبذلك يكون الجاحظ قد وجه ضربة « تحوُّطية » (بتضعيف الواء وضمها) ضد الذين ظنوا انهم يمكن ان ينالوا من العرب بالتطويل والتزمير للشعراء العرب من اصول اعجمية؛ وضد الذين

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : « البيان والتبيين » . تحقيق عبد السلام محمد هارون . ط ٤ (المجمع العلمي العربي الإسلامي . بيروت . بدون تاريخ) . ج ٤ ص ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : « كتاب الحيوان » (مطبعة الحلبي ، القاهرة : ١٩٣٨ - ١٩٤٥ م) ج ١ ص ٩٠ .

ظنوا انه بمقدورهم تصديرُ منطق اليونان ومجادلاتهم وآدابهم وفلسفتهم مع علومهم ومعارفهم (اليونان) .

وظلت تحوّطات الجاحظ في قوّة اندفاعها كمثّل ما نلمحه عند ضياء الدين بن الاثير بعد ذلك بأربعة قرون تقريباً .^(١)

وأكثر من الجاحظ وضوحاً في التصديّي والتحدّي كان أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) الذي جَسَّد الداء ، وأشار إلى الدواء في لغة إسلامية عربية صافية تقيسة مسؤولة قال :

« ... فأبعد غايات كاتبنا في كتابه ان يكون حَسَنَ الخط قويمَ الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قَيْنَة ، او وصف كأس ، وارفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب ، وينظر في شيءٍ من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله عزّ وجلّ بالطعن وهو لا يعرف معناه ،

(١) أبو الفتح ضياء الدين بن الاثير : « المثل السائر » (مطبعة الحلبي ،

القاهرة . ١٩٣٤ م) ج ٢ ص ٤ .

وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب وهو لا يدري من ثقّله^(١).

ويضيف ابن قتيبة واصفاً حال هذا الفتى (المغسولُ دماغه ثقافياً) :

« ولو أن هذا المعجب بنفسه ، الزاري على الاسلام برأيه ، نظر من جهة النظر لأحياء الله بنور الهدى وثَلَج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، واخبار الرسول ﷺ وصحابته ، وعلوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصّب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه ولأمثاله المسلمون ، وقلّ فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ؛ فإذا سمع الغمر والحدّث الغرُّ قوله :

« الكون والفساد وسمعَ والكيان ، والاسماء المفردة ، والكيفية

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : « أدب الكاتب » ط ١ .

حققه محمد الدالي . (مؤسسة الرسالة - بيروت : ١٩٨٢ م) ،

ص ٦ .

والكمية والزمان ، والدليل ، والأخبار المؤلفة ، رآه ما سمع ،
فظنّ ان تحت هذه الالقباب كل فائدة وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم
يحلّ منها بطائل ،^(١) .

ثم يسوق ابن قتيبة أنماطاً من طرائق هذه الترجمات التي تهول بلا
جسم يقول :

« إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه ،
ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم ... والآن حدّ الزمانين ،
مع هذيانٍ كثير ، والخبر ينقسم على تسعة آلاف وكذا وكذا مائة
من الوجوه . »^(٢)

ويعلّق ابن قتيبة على أثر هذه الترجمات ولغاتها على الناشئة
فيقول :

« فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه
كانت وبالاً على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعيياً في المحافل ، وعقلة

(١) « ادب الكاتب » ص ٧ .

(٢) المصدر ذاته والصفحة ذاتها .

عند المتناظرين»^(١).

ثم يضيف ابن قتيبة معقباً :

«ولو أن مؤلف حدّ المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقهِ والفرائض والنحو لعدّ نفسه من البُكم ، أو يسمع كلام رسول الله ﷺ وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب»^(٢).

ويعضّي ابن قتيبة ثمة خطوة أخرى إلى الأمام فيشرع في تأليف كتب منهجية لتملأ الفراغ الفكري الحاصل بالغنى الإسلامي والعربي .

يقول من مقدمة تقديمه لكتابه «أدب الكاتب» :

«فلما رأيت هذا الشأن كلَّ يوم إلى نقصان ، وخشيتُ أن

(١) المصدر ذاته صص ٧ - ٨ .

والعملة : الحبسة .

(٢) المصدر ذاته ص ٩ .

يذهب رَسْمُهُ ويعفو أثرُهُ ؛ جعلتُ له حَظًّا من عنايتي ، وجزءاً من تاليفي ؛ فعملتُ لمُغْفِلِ التَّادِيْبِ كُتْباً خُفَافاً في المَعْرِفَةِ ، وفي تَقْوِيمِ اللِّسَانِ وَالْيَدِ ، يَشْتَمِلُ كُلُّ كِتَابٍ مِنْهَا عَلَى فَنٍّ ، وَأَعْفِيَتِهِ مِنَ التَّطْوِيلِ وَالتَّثْقِيلِ وليست كُتِبْنَا هَذِهِ لِمَنْ لَمْ يَتَعَلَّقَ مِنَ الْإِنْسَانِيَةِ إِلَّا بِالْجِسْمِ ، وَمِنَ الْكِتَابَةِ إِلَّا بِالْأَسْمِ ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مِنَ الْإِدَاةِ إِلَّا بِالْقَلَمِ وَالدَّوَاةِ ، وَلِكُنْهَا لِمَنْ شَدَا شَيْئاً مِنَ الْإِعْرَابِ ...»^(١)

ويحرص ابن قتيبة أن يستدرج المتعلم سلوكاً وأخلاقاً كما استدرجه ثقافة ومعرفة .

يقول :

« وَنَحْنُ نَسْتَحِبُّ لِمَنْ قَبِيلَ عَنَا ، وَاتَّمَّ بَكُتْبِنَا ، أَنْ يُؤَدِّبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُؤَدِّبَ لِسَانَهُ ، وَيَهْدِبَ أَخْلَاقَهُ ، قَبْلَ أَنْ يَهْدِبَ الْفَاطِظَةَ ، وَيَصُونَ مُرْوَعَاتَهُ عَنِ دَنَاءَةِ الْغَيْبَةِ ، وَصِنَاعَتِهِ عَنِ شَيْنِ الْكُذْبِ ...»^(٢)

(١) ادب الكاتب صص ١١ - ١٢ .

(٢) المصدر ذاته ص ١٤ .

وابن قتيبة يعرض لموضوعات القصيدة العربية في الجاهلية
والاسلام ويشرح دقائق المقاصد فيها ...

ثم يقول :

« فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب واعدل بين هذه
الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطيل
فيؤمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمناً إلى مزيد »^(١) .

ثم هو يستسمح طريقة المتأخرين في إحالة ما كان خاصاً
بحياة العرب في الصحراء ، إلى تقيضه مما يمكن أن يكون صورة
مباينة .

يقول :

« وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في
هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مشيد البنيان

(١) ابن قتيبة : « الشعر والشعراء » ط ١ . حقه د . مفيد قبيحة ،

دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٨١ م) ص ١٨ - ١٩ .

لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر ، والرسم العافي أو يرحدل على حمار أو بغل ويصفها ، لأنَّ المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يَقَطَع إلى المدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأنَّ المتقدمين جزوا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة «^(١) .

وما كان لابن قتيبة أنْ يندفع هذه الاندفاعة في صون تقاليد القصيدة العربية والحفاظ على مواضعها إلا تصدياً لتيار «التعبث» الشعوبي الذي كان ظاهره الانتصار من القصيدة من العربية ، وكانت البواطن تنبئ عن الانتقال من مرحلة الهجوم على الشعر العربي ، إلى مرحلة «نصب المنجنيقات» ضد الثقافة الاسلامية .

وإذا كان من أبناء المسلمين أنفسهم ، ممن كانوا قد «غسلت أدمغتهم» و «هوستهم» المنظمات الثقافية السرية العاملة على بثّ

(١) المصدر ذاته ص ١٩ .

اللوثات والتلزيقات في صميم الحياة الثقافية اليومية كمثل ما أشار إليه أبو حيان التوحيدي - قد بدأ يتناول على الاسلام والمسلمين ...

فإنَّ حركة « التعبث » الشعوبي قد كانت تَعُدُّ الهُجُومَ على الشعر العربي ، والعقلية العربية ، والطباع العربية - مرحلة على طريق اجتياز الحصون الاسلامية من الداخل .

يُصدِّقُ (بتضعيف الدال المهملة وكسرها) ، ذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدي عن الجيهاني محمد بن أحمد وزير السامانيين .

قال ابن النديم فيه :

(إنه من رؤساء المتكلمين الذين يُظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة ويصنفون في نصره الاثينية) ...

من انه الف كتاباً « يَسُبُّ العرب ، ويتناول أعراضها ويحطُّ من أقدارها » ، ويقول :

« يأكلون اليرابيع والضباب والجرذان والحيات ، ويتعاورون^(١) »

(١) يتعاورون : يذكر بعضهم عورة بعض .

ويُتساورون ، ويتهاجون ويتفاحشون ، وكانهم قد سُلخوا من فضائل البشر ، ولبسوا أهُبَ الخنازير . قال : ولهذا كان كرى يُسمي مَلِكَ العرب : « سَكان شاه » ، أي ملك الكلاب . قال : وهذا لشدة شَبههم بالكلاب وجرائها ، والذئاب وأطلائها ^(١) وكلاماً كثيراً من هذا الصّوب ... ^(٢)»

ويقوم أبو حيان التوحيدي بتقديم صورة كاملة من المقابلات بين العرب والروم ، والفرس والهند ، ولغاتها وأخلاقها ، وطبائعها ، فيخلص إلى أنّ اللغة العربية هي أنصع اللغات المعروفة لديه .

يقول :

« وقد سمعنا لغاتٍ كثيرةً ، وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج ، مما وجدنا لشيءٍ من هذه اللغات

(١) الأطلاع : الأبناء .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ج ١ صص ٧٨ - ٧٩ .

نُصوعَ العربية ، أعني الفُرَج (بضم الفاء وفتح الراء) التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي ندوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تُتجدد في أبنيتها ... »

ثم يضيف أبو حيان التوحيدي مُعقِّباً بعد تفصيل كثير في مزايا العربية :

« وهذا شيءٌ يجده كُلُّ من كان صحيحَ البنية ، بريئاً من الآفة ، متنزهاً عن الهوى والعصية ، محباً للإنصاف في الخصومة ، متحريراً للحق في الحكومة ، غير مسترقٍ بالتقليد ، ولا مخدوع بالإلف ، ولا مُسخرٍ بالعادة ... »^(١)

ثم ينتقل أبو حيان التوحيدي ، في مَدِّ الجسر العريض بين العرب ولغتهم ، وما كان من أمر الرسالة الإسلامية ، بحيث يصبح واضحاً لكل من كان عنده مُسكَّةٌ من عقل أن

(١) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ .

الاستفراد بالعرب أو بالعربية بمغزل عن الإسلام وما أضفاه على
تراث العربية غير مقبول البتة .

يقول :

« وقد رأيتُ حين هبَّت ريحُهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ،
وانتشرت دعوتهم بالملَّة ، وعزَّت ملتهم بالنبوة ، وغلبت
نُبوتهم بالشرِعة ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونُضرتُ
خلافتهم بالسياسة الدينية والدينيوية ، كيف تحوّلت جميع محاسن
الأمم إليهم ، وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن
طلبوها وكدحوا في حيازتها أو تعبوا في نيلها ...

« وهكذا يكون كلُّ شيءٍ تولاه الله بتوفيقه ، وساقه إلى أهله
بتأييده ، وحلّى مستحقّيه باختياره ، ولا غالب لأمر الله ، ولا
مُبدل لحكم الله ...

« ولذلك قال الله تعالى :

[قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ
الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] .

« ولله في خلقه أسرار ، تتصرف بها دوائر الليل والنهار ،
وتُذللها مجاري الأقدار ، حتى يُنتهى (بصيغة الجھول) بمحبوبها
ومكروها إلى القرار . »^(١)

ثم يضيف أبو حيان التوحيدى قوله :

« فليستحي الجيهاني بعد هذا البيان والكشف والإيضاح ،
بالإنصاف من القَدَع والسّفه اللذين أحشا بهما كتابه ... »^(٢)

ويأتي أبو حيان التوحيدى بعد ذلك بقول القاضي أبي حامد
المَرُورُوذى (ت ٣٦٢ هـ) الذي يستعرض تاريخ الفرس قبل
الاسلام ، مع زرادشت ومع مزدك وما كانوا عليه من القباحت
والخبائث .

ويقول أبو حامد المروروذى :

« فما ظنُّكَ بقومٍ يجهلون آثار الطبيعة ، وأسرارَ

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) المصدر ذاته ج ١ ص ٨٥ .

الشرعية ؟ وما أذللهم اللهُ باطلاً ، ولا سلبهم مُلكهم ظالماً ،
ولا ضربهم بالخزي والمهانة إلاّ جزاءً على سيرتهم القبيحة ،
وكذبهم على الله بالجرأة والمكابرة ، وما الله بظلام
للعبيد^(١) .

من ها هنا ، فإنّ مناظرة أبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨) ،
لأبي بشر مَتَّى بن يونس القنَّائي ، تأتي في سياق حضاري
وتاريخي ، لها خصائص معينة ، وأحوال دالّة ، وقرائن من نوع
مُعَين .

ولا يُعنيننا كثيراً أن نكتشف حجم المؤامرة الثقافية التي كان
يجمع على تدبيرها جميعُ العناصر الحاقدة على الاسلام والمسلمين -
فذلك في الأمر الطبيعي والمنتظر .

وهو ما حدّثناه القرآن الكريم حين قال الله تعالى وهو
أعلم بالحقائق :

(١) المصدر ذاته ج ١ ص ٩٥ .

[وما تفرّق الذين أوتوا الكتابَ إلاّ من بعد ما جاءتهم
البيّنة .]

سورة البيّنة الآية الرابعة .

وهو ما حدّثناه القرآن الكريم حين قال الله تعالى ، وهو
أعلم بالحقائق :

[ولن ترضى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتّبعَ ملّتهم ،
قلّ إنّ هدى الله هو الهدى . ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الذي
جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير .]

البقرة : ١٢٠

وتحسباً لمثل هذه المواقف كان الله تعالى يأمر المسلمين أن
يظلوا على « صهوات جيادهم » إعداداً واستعداداً وتحفزاً وتوثباً :

[وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباط الخيل
ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ،
الله يعلمهم ... الآية] .

الأنفال : ٦٠

ولا تزال المؤامرة الثقافية على الاسلام والمسلمين ، على ذات الدرجة من الخبث ، والمكر ، والهجمة - ما كان منها بفعل مراكز التشرنق القديمة - الحديثة ، وما كان منها بفعل صبية المسلمين ... الذين يقول فيهم أبو محمد عبدالله ابن قتيبة :

« ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وأخبار الرسول ﷺ ، وعلوم العرب ولغاتها وآدابها » .

ومن عجبٍ ... ان مراكز الثقافة الغربية تتهاوى امام الاجتياح الفكري الاسلامي ، وبيانه الناصع ... ويُعلن كل يوم ، قادة ثقافيون أعاجم ، إسلامهم بلاء اختيارهم ، وفي نشوة انتصار .

وعندنا في بلاد الشرقِ صبيةٌ مسلمون يتبعون الهجريين الأوائل ، والقرامطة الماضين ، والحشاشين الغوابر .

ومنهم من هو ذيل « موسكوي » ... فإن أنت ذكرته (بتضعيف الكاف وفتحها) بما يجترحه الرأسُ من هتك لأعراض المسلمات الأفغانيات ، طأطأ الرأس من بُهتٍ ، ولا يرتدُّ اليه طرفُهُ .

وإن انت تركته وشأنه ذهب يشيد بمنساقب الأدباء الروس
والعلماء الروس ، والأبطال الروس ، وهو لا يعرف من الروسية
الفها .

وقد قابلت عدداً من هؤلاء من حزب « تودة » من اهالي إيران
في جامعة اكسفورد .

فلما كنت أحكي له انه مسلم ، وان اغتصاب اخواته المسلمات
في أفغانستان إهدار لكبريائه الاسلامية قبل ان يصبح بوقاً وطبلاً
- كان شهد الله ، والله على ما اقول وكيل - يطأطئ الرأس
بهتاً وخجلاً .

ومنهم من هو ذيل « واشنطي » غير مدفوع له ، وفي غير
موضع ترحيب .

تماماً كما قدّم العرب في امريكا اصواتهم إلى الرئيس الأمريكي
كارتر فقال لهم إنه لا يريد هذه الاصوات .

إن عمالقة الفلسفة في الوطن العربي الكبير ، وفي الوطن
المصري بالذات ممن لم يدرسوا في الغرب ، ولا عرفوا لغاته الحية
ولا عاشوا مناهج الحياة هنالك ، هاهم ينادون بالتغريب وبتقليد

الغريين في مناهج حياتهم .

وما اظن هؤلاء يريدون إلاّ فصل الدين عن الدولة ...
وإنّ تسموا بأسماء : محمد واحمد من صبية المسلمين ، الذين
وصف ابن قتيبة حال امثالهم مع دهاقنة الفلاسفة السريان
واليهود .

لا يُعنيننا ان نكتشف حجم المؤامرة الثقافية التي كان ابو
سعيد السيرافي يُعلّم (بضم الياء وفتح العين المهملة وتضعيف اللام
وفتحها) ، على اصولها وميلها وتأثيرها بقدر ما يعنيننا ان
نكتشف حجم « الحصانة » الثقافية ، التي كان يتمتع بها أبناءُ
المسلمين ، ممن كانت التقوى الاسلاميةُ مادّةَ حياتهم ، وغذاء
ارواحهم .

وإذا عرفنا مرامي « الحصانة » الثقافية الاسلامي في
عرض (بضم العين المهملة) الهجمة الثقافية الشرسة ...
فان ذلك يضعنا على طريق « التواصل » الحضاري مع أمة
الاسلام ، فنعرف كيف كان الرّد ونحس كيف يكون الرّد ،
ونفتح العيون والأذان على الكيد الذي كان ويراد .

هذا وقد اعتمدتُ نصّ المناظرة كمثل ما ساقها أبو حيان

التوحيدي في كتابه « الإمتاع والمؤانسة »^(١).

واستعنت عليها بما ساقه ياقوت في صدر ترجمته لأبي سعيد

السيرافي ...

(١) الجزء الأول ص ١٠٧ وما بعدها .

رَفَع
عبد الرحمن البجاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في التذوق الجمالي

لمناظرة ابي سعيد السيرافي و ابي بشر

متى بن يونس القنائي في مجلس الوزير

أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات سنة ٣٢٦ هـ

المناظرة

المناظرة على التمام فان شيئاً يجري في ذلك المجلس النبيه بين هذين الشيخين بحضرة أولئك الاعلام ينبغي ان يُغتَمَّ سماعه ، وتوعى فوائده ، ولا يُتَهاوَنَ بشيء منه .

فكتبتُ :

حدثني أبو سعيد بلُمع من هذه القصة . فاما علي بن عيسى الشيخ الصالح فإنه رواها مشروحة .

لما انعقد المجلس سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة ، قال الوزير ابن الفرات للجماعة - وفيهم الخالديّ وابن الاخشاد والكتبي وابن ابي بشر ، وابن رباح ابن كعب ، وابو عمرو قدامة بن جعفر والزهرّي ، وعلي بن عيسى الجراح ، وابن فراس ، وابن رشيد ،

وابن عبد العزيز الهاشمي ، وابن يحيى العلويّ ، ورسول ابن طغج من مصر ، والمرزبانيّ صاحب آل سامان - :

ألا يَنتدب منكم إنسان لمنظرة متى في حديث المنطق ،
فانه يقول :

لا سبيل إلى معرفة الحقّ من الباطل ، والصدق من الكذب ،
والخير من الشرّ ، والحجّة من الشبهة ، والشك من اليقين إلا بما
حويناه من المنطق ، وملكناه من القيام به ، واستفدناه من
واضعه على مراتبه وحدوده ، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على
حقائقه .

فأحجم القوم وأطرقوا ...

قال ابن الفرات :

- والله إن فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما
يذهب إليه ، وإني لأعدكم في العلم بجاراً ، وللدّين وأهله انصاراً ،
وللحق وطلابّه مناراً ؛ فما هذا الترامز والتغامز اللذان
تجِلّون عنهما ؟

فرفع أبو سعيد السيرافيّ رأسه فقال :

- اعذر ايها الوزير ، فان العلم المصون في الصدر غير العلم

المعروض في هذا المجلس على الاسماع المُصَيِّخَة ، والعيون المَحْدِقَة ،
والعقول الحادَّة ، والالباب الناقدَة ؛ لأن هذا يستصحب الهيبة ،
والهيبة مَكْسَرَة ، ويحتلب الحياء ، والحياء مَغْلَبَة ؛ وليس البراز في
معركة خاصة كالِمِصَاع في بقعة عامَّة .

فقال ابن الفرات :

– انت لها يا ابا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك
الانتصار لنفسك ، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة
بفضلك .

فقال ابو سعيد :

– مخالفة الوزير فيما رسمه هُجْنَة ، والاحتجازُ عن رأيه إخلاذ
إلى التقصير ؛ ونعوذ بالله من زَلَة القَدَم ، وإياه نسالُ حُسْنَ
المعونة في الحرب والسُّلْم .

ثم واجه متّى (فقال) :

– حدّثني عن المنطق ما تعني (به) ؟ فانا إذا فهمنا مرادك
فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه وردّ خطئه على سَنَنِ مَرَضِيٍّ
وطريقة معروفة .

قال متى :

- اعني به انه آلة من آلات الكلام يُعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسدُ المعنى من صالحه ، كالميزان ، فإني اعرف به الرُّجْحان من النقصان ، والشائل من الجانح .

فقال ابو سعيد :

اخطأت ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنظم المألوف والإعراب المألوف إذا كُنّا نتكلّم بالعربيّة ؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرف بالعقل إذا كُنّا نبحت بالعقل ؛ وهَبِكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمى لك بمعرفة الموزون أيّما هو حديد او ذهب او شبه (او رصاص) ؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون ، وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها ؛ فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان اجتهادك ، إلاّ نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيتُ عليك وجوه ، فأنت كما قال الأوّل :

حفظتَ شيئاً وغابت عنك اشياء

وبعد ، فقد ذهب عليك شيء ها هنا ، ليس كلُّ ما في الدنيا
يوزن ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكَلِّم ، وفيها ما يُذَرَع ،
وفيها ما يُمَسَّحُ و (فيها ما) يُحزَر ، وهذا وإن كان هكذا في
الأجسام المرئية ، فإنه على ذلك ايضاً في المعقولات المقررة ؛
والإحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه
المحفوظ والمماثلة الظاهرة .

ودع هذا ؛ إذا كان المنطقُ وَوَضَعَهُ رجل من يونان على لغة
اهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها .
فمن اين يلزم الشُّرْك والهندَ والفرسَ والعربَ ان ينظروا
فيه ويتخذوه قاضياً وَحَكَمًا لهم وعليهم ، ما شهد لهم به قبلوه ،
وما انكره رفضوه ؟

قال متى :

- إنما لزم ذلك لان المنطقُ بَحْثٌ عن الاغراض المعقولة
والمعاني المدركة ، وتصفح للخواطر الساخنة والسوانح الهاجسة ؛
والناس في المعقولات سواء ، الا ترى ان اربعةً واربعةً (ثمانية)
سواءً عند جميع الأمم ، وكذلك ما اشبهه .

قال ابو سعيد :

- لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبيها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البيّنة في اربعة واربعة وأنها ثمانية ، زال الاختلاف وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الامر هكذا ، ولقد موّهت بهذا المثال ، ولكم عادة بمثل هذا التمويه ؛ ولكن مع هذا ايضا إذا كانت الاغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والافعال والحروف ، افليس قد لزمّت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟

قال : نعم .

قال : اخطأت ، قل في هذا الموضع : بلى .

قال : بلى ، انا اقلّدك في مثل هذا .

قال : انت إذا لست تدعونا إلى علم المنطق ، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية وانت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها ؟ وقد عفت منذ زمان طويل ، وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون اغراضهم بتصاريقها ؛ على انك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى

اخرى عربية؟

قال متى :

- يونان ، وإن بادت مع لغتها ، فان الترجمة حفظت الاغراض ،
وأدت المعاني ، واخلفت الحقائق .

قال أبو سعيد :

- إذا سلّمنا لك أنّ الترجمة صدقتُ وما كذبتُ ، وقوّمتُ
وما حرّفتُ ، ووزنتُ وما جَزفتُ ، وأنها (ما) التائت ولا
حأفتُ ، ولا تقصتُ ولا زادتُ ، ولا قدّمتُ ولا أخّرتُ ، ولا
أخلّتُ بمعنى الخاصّ والعامّ ، ولا (بأخصّ الخاصّ ولا) بأعمّ
العامّ - وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو في طبائع اللغات ولا
في مقادير المعاني - فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا
برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه .

قال متى :

- لا ، ولكنّهم من بين الأمم أصحابُ عناية بالحكمة والبحث
عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كلّ ما يتّصل به وينفصل
عنه ، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ونشأ

ما فشا (ونشأ ما نشأ) من أنواع العلم وأصناف الصنائع ؛ ولم نجد هذا لغيرهم .

قال أبو سعيد :

ـ أخطاتَ وتعصبتَ ومِلتَ مع الهوى ، فإنَّ عِلْمَ العالمِ مبثوثٌ في العالمِ بين جميع من في العالمِ ، ولهذا قال القائل :

العلم في العالم مبثوث
ونحوه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جَدَدِ الأرض ، ولهذا غلبَ علمٌ في مكان دون عِلْمٍ ، وكثرتُ صناعةٌ في بقعة دون صناعةٍ ؛ وهذا واضح والزيادة عليه مشغلةٌ ، ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت يونانُ معروفةً من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفِطنة الظاهرة ، والبنية المخالفة ، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدروا ، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا ، وأنّ السكينة نزلت عليهم ، والحقّ تكفّل بهم ، والخطأ تبرأ منهم ، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم ،

والرذائل بعدتُ من جواهرهم وعروقهم ، وهذا جهلٌ ممّن يظنّه بهم ، وعنادٌ ممّن يدّعيه لهم .

بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء ، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء ، ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور ، ويُحسِنون في أحوال ويسئثون في أحوال ...

وليس واضح المنطق يونانُ بأسرها ، إنما هو رجل منهم ، وقد أخذ عمّن قبله ، كما أخذ عنه من بعده . وليس هو حجّةً على هذا الخلق الكثير والجَمّ الغفير ، وله مخالفون منهم ومن غيرهم ...

ومع هذا ، فالاختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة والجواب سنخٌ وطبيعة ، فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف أو يحلّله أو يؤثّر فيه ؟

(هيهات) هذا محال ، ولقد بقيَ العالم بعد منطقته على ما كان عليه قبل منطقته .

فامسح وجهك بالسلوة عن شيء لا يستطيع لانه منعقد بالفطرة والطباع ...

وأنت لو فرغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللغة التي تخاورنا بها، وتجارينا فيها، وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها وتشرح كتب يونان بعادة أصحابها، لعلمت أنك غني عن (معاني يونان كما أنك غني عن لغة) يونان.

وها هنا مسألة، تقول: إن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم منها متفاوتة.

قال: نعم.

قال: وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالاكْتساب؟

قال: بالطبيعة.

قال: فكيف يجوز أن يكون ها هنا شيء يرتفع به هذا الاختلاف الطبيعي والتفاوت الأصلي؟

قال متي:

— هذا قدر في جملة كلامك آنفاً.

قال أبو سعيد:

— فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصع؟ ودع هذا، أسالك

عن حرف واحد ، وهو دائر في كلام العرب ، ومعانيه متميِّزة عند اهل العقل ، فاستخرج انت معانيه من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تُدِلُّ به وتُبَاهِي بتفخيمه ، وهو (الواو) ما احكامه ؟ وكيف مواعهه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟

فُبَيِّت متى وقال :

- هذا نحو ، والنحو لم انظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقيّ اليه ، وبالنحويّ حاجة شديدة إلى المنطق ، لأنّ المنطق يبحث عن المعنى (والنحو يبحث عن اللفظ) ، فإن مر المنطقيّ باللفظ فبالعَرَض ، وإن عَثَرَ النحويُّ بالمعنى فبالعَرَض والمعنى اشرف من اللفظ ، واللفظ اوضح من المعنى .

فقال ابو سعيد :

- أخطأت ، لأن الكلام والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار والعَرَض (والتَّمْنِيَا) ، والنهي والحضّ والدعاء والنداء والطلب كلّها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة ، الا ترى أن رجلاً لو قال :

« نطق زيد بالحقّ ولكن ما تكلم بالحق ، وتكلم بالفحش ،
ولكن ما قال الفحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، وأبان
المراد ولكن ما أوضح ، او فاهَ بحاجته ولكن ما لفظ ، او
أخبرَ ولكن ما انبا » .

لكان في جميع هذا محرّفًا ومناقضًا وواضعًا للكلام في غير
حقّه ، ومستعملًا اللفظ على غير شهادة (من) عقله وعقل غيره ،
والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ، ولكنه
مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى ان اللفظ طبيعيّ
والمعنى عقليّ .

ولهذا كان اللفظ بئدأ على الزمان ، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة
(بأثر آخر من الطبيعة) ، ولهذا كان المعنى ثابتًا على الزمان ، لأن
مستملى المعنى عقل ، والعقل إلهيّ ، ومادّة اللفظ طينيّة ، وكلّ
طينيّ متهافت .

وقد بقيتَ انتَ بلا اسم لصناعتك التي تنتحلها ، وآلتك التي
تُزهي بها ، إلا أن تستعير من العربية لها اسمًا فتُعَار ، ويسلمّ لك
ذلك بمقدار .

وإذا لم يكن لك بدّ من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة ، فلا
بدّ لك أيضاً من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثّقة

والتوقي من الخلة اللاحقة .

فقال متى :

- يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف : فاني أتبلغ
بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتهأ إلى يونان .

قال (أبو سعيد) :

- أخطأت ، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى
وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها .

وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال
والحروف ، فان الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في
المتحرّكات ، وهذا باب (أنت وأصحابك ورهطك عنه في
غفلة ...

على أن ها هنا سرّاً ما علق بك ، ولا أسفر لعقلك ، وهو
أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها
بحدود صفاتها ، في أسماءها وأفعالها وحروفها وتاليفها وتقديمها
وتأخيرها ، واستعارتها وتحقيقها ، وتشديدها وتخفيفها ، وسعتها

وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ، ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وما أظنّ أحداً يدفع هذا الحكم أو يشكُّ في صوابه ممن يرجع إلى مُسكّةٍ من عقل أو نصيبٍ من إنصاف ، فمن أين يجب أن تَثِقَ بشيءٍ تُترجم لك على هذا الوصف ؟

بل أنت إلى تعرف اللغة العربية أحوجُ منك إلى تعرف المعاني اليونانية .

على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية ، كما أن اللغات تكون فارسية وعربية وتركية .

ومع هذا فانك تزعم ان المعاني حاصلة بالعقل والفحص والفكر ، فلم يبق إلا احكام اللغة ، فلم تُزرى على العربية وانت تشرح كتب أرسطو طاليس بها ، مع جهلك بحقيقتها ؟

وحدثني عن قائل قال لك :

حالي في معرفة الحقائق والتصفح لها (والبحث عنها) حال قوم كانوا قبل واضع المنطق ، انظر كما نظروا ، واتدبر كما تدبروا ، لأن اللغة قد عرفتُها بالمشأ والوارثة ، والمعاني نقرتُ عنها بالنظر والرأي والاعتقاد والاجتهاد .

ما تقول له ؟

أقول : انه لا يصح له هذا الحكم ، ولا يستتب هذا الأمر ،
لأنه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التي عرفتها انت ؟
ولعلك تفرح بتقليده لك - وإن كان على باطل - أكثر مما تفرح
باستبداده ، وإن كان على حق ؛ وهذا هو الجهل المبين ، والحكم
المشين .

ومع هذا ، فحدثني عن الواو ما حكمه ؟

فاني أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئاً ،
وأنت تجهل حرفاً واحداً في اللغة التي تدعوها إلى حكمة يونان ،
ومن جهل حرفاً أمكن أن يجهل حرفاً ، ومن جهل حرفاً
جاز ان يجهل اللغة بكاملها ، فان كان لا يجهلها كلها ولكن يجهل
بعضها ، فلعله يجهل ما يحتاج إليه ، ولا ينفعه فيه علم ما لا
يحتاج اليه .

وهذه رتبة العامة او رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير ؛
فلم يتأبى على هذا ويتكبر ، ويتوهم انه من الخاصة وخاصة
الخاصة ، وأنه يعرف سرّ الكلام وغامض الحكمة وخفيّ القياس
وصحيح البرهان ؟

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد ، فكيف لو نثرتُ عليك

الحروف كلها ، وطالبتك بمعانيها ومواقعها التي لها بالحق ، والتي لها بالتجوّز .

سمعتكم تقولون :

إن « في » لا يعرف النحويون مواقعها ، وإنما يقولون :

هي « للوعاء » .

كما (يقولون) :

« إن الباء للإلصاق » ، وإن « في » تقال على وجوه :

يقال « الشيء في الإناء » « والإناء في المكان » « والسائس (في

السياسة) « « والسياسة في السائس » .

أترى ان هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها ؟

ولا يجوز ان يُعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب ؟

فهذا جهلٌ من كلٍّ من يدّعيه ، وخطأٌ من القول الذي

افاض فيه .

النحويُّ إذا قال « في » للوعاء فقد افصح في الجملة عن المعنى

الصحيح ، وكفى مع ذلك عن الوجوه التي تظهر بالتفصيل ، ومثل

هذا كثير ، وهو كافٍ في موضع التَّكْنِيَةِ .

فقال ابن الفرات :

— ايها الشيخ الموفِّق ، اجبه بالبيان عن مواقع « الواو »
حتى تكون اشدَّ في إفحامه ، وحقَّق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ،
ومع هذا فهو مشنَّع به .

فقال ابو سعيد :

— للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف في قولك :
« اكرمت زيدا وعمراً » ومنها القسم في قولك : « والله لقد كان
كذا وكذا » .

ومنها الاستئناف في قولك :

« خرجتُ وزيد قائمٌ » .

لأن الكلام بعده ابتداء وخبر ، ومنها معنى ربِّ التي هي
للتقليل نحو قولهم :

وقائمِ الأعماقِ خاويِ المخترقِ

ومنها ان تكون اصلية في الاسم ، كقولك :

واصلٌ واقدٌ وافدٌ .

وفي الفعل كذلك ، كقولك :

وَجَلَّ يَوْجَل .

ومنها ان تكون مقحمة نحو قول الله عز وجل :

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْتَاهُ) .

أي نادينه .

ومثله قول الشاعر :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

المعنى : انتحى بنا .

ومنها معنى الحال في قوله عز وجل :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْعَهْدِ وَكَهْلًا) .

أي يكلم الناس في حال كهولته .

ومنها ان تكون بمعنى حرف الجر ، كقولك : استوى الماء

والخشبة أي مع الخشبة .

فقال ابن الفرات ، (لنتي) .

يا ابا بشر : اكان هذا في نحوك .

ثم قال ابو سعيد :

دع هذا ، ها هنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثر من علاقتها
بالشكل اللفظي ، ما تقول في قول القائل : « زيد افضل
الاخوة ؟ »

قال : صحيح .

قال : فما (تقول إن قال : « زيد افضل إخوته » ؟

قال : صحيح . قال : فما الفرق بينها (مع الصّحة) . فبَلِّحْ
وَجَنِّحْ وَغَصَّ بَرِيْقَهُ .

فقال أبو سعيد :

— أفيتت على غير بصيرة ولا استبانة ، المسألة الأولى جوابك
عنها صحيح وإن كنت غافلاً عن وجه صحتها ، والمسألة الثانية
جوابك عنها غير صحيح وإن كنت أيضاً ذاهلاً عن وجه
بطلانها .

قال متى :

— بين لي ما هذا التهجين ؟

قال أبو سعيد :

— إذا حضرت الحلقة استفدت ، ليس هذا مكان التدريس هو

مجلس إزالة التلبيس ، مع من عادته التمويه والتشبيه ، والجماعة تعلم أنك أخطأت ، فلم تدعي أن النحوي إنما ينظر في اللفظ دون المعنى ، والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقي كان يسكت ويحيل فكره في المعاني ، ويرتب ما يريد بالوهم السانح والخاطر العارض والحدس الطارئ ، فأما وهو يريد أن يبرر ما صح له بالاعتبار والتصفح إلى المتعلم والمناظر ، فلا بد له من اللفظ الذي يشتمل على مراده ، ويكون طباقاً لغرضه ، وموافقاً لقصده .

قال ابن الفرات لأبي سعيد :

— تَمَّ لنا كلامك في شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس ، والتبكيكُ عاملاً في نفس أبي بشر .

فقال : ما أكره من إيضاح الجواب عن هذه المسألة إلاَّ مَلَلَ الوزير ، فإن الكلام إذا طال مُلَّ .

فقال ابن الفرات :

— ما رغبتُ في سماع كلامك وبينني وبين المَلَلِ علاقة ، فأما الجماعة فحُرِّصها على ذلك ظاهر .

فقال أبو سعيد :

— إذا قلت : « زيد أفضل إخوته » لم يجز ، وإذا قلت :
« زيد أفضل الإخوة » جاز . والفصل بينهما أن إخوة زيدهم غيرُ
زيد ، وزيدٌ خارجٌ عن جملتهم .

والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال : « من إخوة زيد » .
لم يجز أن تقول : زيد وعمرو وبكر وخالد (وإنما تقول : بكر
وعمر و خالد) ، ولا يدخل زيدٌ في جملتهم .

فإذا كان زيد خارجاً عن إخوته صار غيرهم ، فلم يجز أن
تقول : أفضل إخوته .

كما لم يجز أن تقول : إن حمارك أفرهُ البغال ، لأن الحمير
غير البغال ، كما أن زيدا غيرُ إخوته ، فإذا قلت : زيد خير
الإخوة » جاز ، لأنه أحد الإخوة ، والاسم يقع عليه وعلى غيره ،
فهو بعض الإخوة .

الا ترى انه لو قيل : « من الإخوة » ؟ عددته فيهم .
فقلت : « زيد وعمرو وبكر وخالد » .

فيكون بمنزلة قولك : « حمارك أفرهُ الحمير » ، لانه داخل تحت

الاسم الواقع على الحمير .

فلما كان على ما وصفنا جازان يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس .

فتقول : « زيد افضل رجل » ، و « حمارك اقره حمار » ، فيدلّ « رجل » على الجنس كما دلّ الرجال ، وكما في « عشرين درهماً ومائة درهم » .

فقال ابن الفرات :

— ما بعد هذا البيان مزيد ، ولقد جلّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الاسفار .

قال أبو سعيد :

— معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تاليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك ، وإن زاغ شيء عن هذا النعت ، فإنه لا يخلو من ان يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد ، أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم .

فأما ما يتعلّق باختلاف لغات القبائل ، فذلك شيء مسلّم لهم
وماخوذ عنهم ، وكلُّ ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع
والقياس المطّرد على الأصل المعروف من غير تحريف ، وإنما دخل
العُجب على المنطقيين لظنهم ان المعاني لا تُعرَف ولا تُستوضح
إلا بطريقهم ونظرهم وتكلّفهم ، فترجوا لغةً هم فيها ضعفاء
ناقصون .

وجعلوا تلك الترجمة صناعة ، وادّعوا على النحويين أنهم مع
اللفظ لا مع المعنى .

ثم اقبل ابو سعيد على متى فقال :

— اما تعرف يا ابا بشر ان الكلام اسم واقع على اشياء قد
اختلفت بمراتب ، وتقول بالمثل : هذا ثوب والثوب اسم يقع على
على اشياء بها صار ثوباً ، لأنه نُسجَ بعد ان غزل ، فسدّاته لا
تكفي دون لِحْمَتِهِ وُلْحْمَتُهُ لا تكفي دون سِدّاتِهِ ، ثم تاليفه
كنسجه ، وبلاغته كقصارته ، ورقّة سِلْكِهِ كرقّة لفظه ، وغلظُ
غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كلّهُ ثوب ، ولكن بعد تقدمة
كلّ ما يُحتاج اليه فيه .

قال ابن الفرات :

— سله يا ابا سعيد عن مسألة اخرى ، فان هذا كالمسا توالى
عليه بان انقطاعه ، وانخفض ارتفاعه ، في المنطق الذي ينصره ،
والحق الذي (لا) يبصره .

قال ابو سعيد :

— ما تقول في رجل يقول : « لهذا عليّ درهم غير قيراط ،
ولهذا الآخر عليّ درهم غير قيراط » .

قال : ما لي علم بهذا النّمط .

قال : لست نازعاً عنك حتى يصحّ عند الحاضرين انك صاحب
مخرقة وزرّق ، ها هنا ما هو أخفّ من هذا ... قال رجل
لصاحبه : « بكم الثوبان المصبوغان » ، وقال آخر : « بكم ثوبان
مصبوغان » ، وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغين » بين هذه المعاني
التي تضمّنها لفظٌ لفظ .

قال متي :

— لو نثرتُ انا ايضاً عليك من مسائل المنطق اشياء لكان
حالك كحالي .

قال ابو سعيد :

— أخطأت ، لأنك إذا سألتني عن شيء انظر فيه ، فان كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظه على العادة الجارية اجبت ، ثم لا أبالي أن يكون موافقاً او مخالفاً ، وإن كان غير متعلّق بالمعنى رددته عليك ، وإن كان متّصلاً باللفظ ولكن على وّضعٍ لكم في الفساد على ما حشوتهم به كتبكم رددته أيضاً لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة في لغة مقرّرة بين أهلها .

ما وجدنا لكم إلا ما استعرت من لغة العرب (كالسبب والآلة) والسلب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمّل والمحصور ، وامثلة لا تنفع ولا تُجدي ، وهي إلى العبيّ أقرب ، وفي الفهاة أذهب .

ثم انتم هؤلاء في منطقتكم على نقض ظاهر ، لأنكم لا تفون بالكتب ، ولا هي مشروحة ، فتدعون الشعر ولا تعرفونسه ، وتذكرون الخطابة وانتم عنها في منقطع التراب .

وقد سمعتُ قائلكم يقول :

« الحاجة ماسة إلى كتاب البرهان » .

فإن كان كما قال فلم يُقطع الزمانُ بما قبله من الكتب ، وإن

كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان ، فهي ايضاً ماسةٌ إلى ما بعد البرهان .

وإلا فلم تُصنّف ما لا يُحتاج اليه ويُستغنى عنه ، هذا كلّه تخليط وزرّق وتهويل ورعد وبرق .

وإنما بودّكم أن تشغلوا جاهلاً ، وتستذلّوا عزيزاً ؟

وغايتكم ان تهوّلوا بالجنس والنوع والخاصة والفصل والعرض والشخص ...

وتقولوا : الهليّة والأينيّة والماهية والكيفيّة والكميّة والذاتيّة والعرضية والجوهرية والهيوليّة والصورية والأيسية والليسية والنفسية ؟

ثم تتناولون فتقولون :

« جنّنا بالسحر » في قولنا : « لا » في شيء من « ب » و « ج » في بعض « ب » ، ف « لا » في بعض « ج » و « لا » في كل « ب » و « ج » في كل « ب » .

فاذن « لا » في كل « ج » ، هذا بطريق الخلف ، وهذا بطريق الاختصاص .

وهذه كلها خرافات وتُرّهات ، ومغالق وشبكات ، ومن جاد عقله ، وحسن تمييزه ، ولطف نظره ، وثقّب رأيه ، وأنارت نفسه استغنى عن هذا كله - بعون الله وفضله - وجودة العقل وحسن التمييز ، ولطف النظر ، وثقوب الرأي ، وإنارة النفس من منائح الله الهنيئة ، ومواهبه السنية ، يختص بها من يشاء من عباده ..

وما أعرف لاستطالتم بالمنطق وجهاً ، وهذا الناشئ أبو العباس قد تقض عليكم ، وتتبع طريقتكم ، وبين خطاكم ، وأبرز ضعفكم ، ولم تقدرُوا إلى اليوم أن تردّوا عليه (كلمة واحدة) مما قال .

وما زدتم على قولكم :

لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا ، وإنما تكلم على وهم .

وهذا منكم تحاجزٌ ونكولٌ ورضيٌّ بالعجز وُكلولٌ ، وكل ما ذكرتم في الموجودات فعليكم فيه اعتراض هذا قولكم في :
« يفعل وينفعل » ...

لم تستوضحوا فيهما مراتبهما ومواقعهما ، ولم تقفوا على

مَقَاسِمِهَا ، لَأَنْكُمْ قَنِعْتُمْ فِيهَا بِوُقُوعِ الْفِعْلِ مِنْ « يَفْعَلُ » وَقَبُولِ
الْفِعْلِ مِنْ « يَنْفَعَلُ » ...

وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ غَايَاتٌ خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ ، وَمَعَارِفٌ ذَهَبَتْ عَنْكُمْ
وَهَذَا حَالُكُمْ فِي الْإِضَافَةِ .

فَأَمَّا الْبَدَلُ وَوَجُوهُهُ ، وَالْمَعْرِفَةُ وَأَقْسَامُهَا ، وَالنِّكْرَةُ وَمَرَاتِبُهَا ،
وغيرُ ذَلِكَ مِمَّا يَطْوُلُ ذِكْرَهُ ، فَلَيْسَ لَكُمْ فِيهِ مَقْسَالٌ ، وَ (لَا)
بِمَجَالٍ .

وَأَنْتَ إِذَا قَلْتَ لِإِنْسَانٍ :

(كُنْ مَنْطِقِيًّا) .

فَإِنَّمَا تُرِيدُ :

كُنْ عَقْلِيًّا أَوْ عَاقِلًا أَوْ اعْقِلْ مَا تَقُولُ ، لِأَنَّ أَصْحَابَكَ يَزْعَمُونَ
أَنَّ النَّطْقَ هُوَ الْعَقْلُ ، وَهَذَا قَوْلٌ مَدْخُولٌ ، لِأَنَّ النَّطْقَ عَلَى وَجْهِهِ
أَنْتُمْ عَنْهَا فِي سَهْوٍ .

وَإِذَا قَالَ لَكَ آخَرٌ :

(كُنْ نَحْوِيًّا لِنُغْوِيًّا فَصِيحًا) .

فإنما يريد :

أفهم عن نفسك ما تقول ، ثم رُمَّ أن يفهم عنك غيرك .
وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه ، وقدر المعنى على اللفظ
فلا ينقص منه ، هذا إذا كنت في تحقيق شيء على ما هو به .

فأما إذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فاجل اللفظ
بالروادف الموضحة والأشباه المقرّبة ، والاستعارات الممتعة ، وبين
المعاني بالبلاغة ، أعني لوّح منها لشيء حتى لا تصاب إلا بالبحث
عنها والشوق إليها .

لأن المطلوب إذا تُظفر به على هذا الوجه عزّ وحلا ، وكرم
وعلا . وشرح منها شيئاً حتى لا يمكن أن يُمتري (فيه) أو
يُتعبَ في فهمه أو يُعرجَ عنه لاغتاضه .

فهذا المذهب يكون جامعاً لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق ،
وهذا بابٌ إن استقصيته خرج عن نعط ما نحن عليه في هذا
المجلس ، على أني لا أدري أيؤثر فيك ما أقول أو لا ؟
ثم قال : حدثنا هل فصلتم (قطّ) بالمنطق بين مختلفين ، أو
رفعتم الخلافَ بين اثنين .

أتراك بقوة المنطق وبرهانه اعتقدت أن الله ثالثُ ثلاثة ،
وأن الواحد أكثرُ من واحد ، وأن الذي هو أكثر من واحد

هو واحد، وأن الشرع ما تذهب إليه ، والحقّ ما تقوله ؟
هيهات ، ها هنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابك وهداياهم ، وتدقُّ
عن عقولهم وأذهانهم .

ودعُ هذا ، ها هنا مسألة قد أوقعتُ خلافاً ، فارفع ذلك الخلاف
بمنطقتك .

قال قائل : (لفلانٍ من الحائظ إلى الحائظ) ما الحكم
فيه ؟ وما قدرُ المشهود به لفلان ؟

فقد قال ناس : له الحائطان معاً وما بينهما ؟

وقال آخرون : له (النصف من كلٍّ منهما . وقال آخرون :
له) أحدهما . هات الآن آيتك الباهرة ، ومعجزتك القاهرة ، وأنى
لك بهما ، وهذا قد بان بغير نظرك ونظر أصحابك .
ودع هذا أيضاً .

قال قائل : (من الكلام ما هو مستقيم حسن ، ومنه ما هو
مستقيم محال ، ومنه ما هو مستقيم قبيح ، ومنه ما هو محال كذب ،
ومنه ما هو خطأ) .

فسر هذه الجملة . واعترض عليه عالمٌ آخرٌ ، فاحكم أنت بين

هذا القائل والمعتري وأرنا قوة صناعتك التي تميز (بها) بين الخطأ والصواب ، وبين الحق والباطل ؟

فان قلت : كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعتُ مقالته ، والآخرُ لم أحصلُ اعتراضه ؟

قيل لك : استخرج بنظرِكَ الاعتراض إن كان ما قاله محتملاً له ، ثم اوضح الحقَّ منهما ، لأن الأصل مسموع لك ، حاصلٌ عندك وما يصحّ به أو يردُّ عليه يجب أن يظهر منك ، فلا تتعاسرُ علينا ، فان هذا لا يخفى على (أحد من) الجماعة .

فقد بان الآن أنّ مركّب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل ، والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة .

وليس في قوة اللفظ من أيّ لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيطَ به ، وينصبَ عليه سُوراً ، ولا يدعُ شيئاً من داخله أن يخرج ، ولا شيئاً من خارجه أن يدخل ، خوفاً من الاختلاط الجالبِ للفساد .

أعني أنّ ذلك يخلط الحق بالباطل ، ويشبه الباطل بالحق ، وهذا الذي وقع الصحيحُ منه في الأوّل قبلَ وضع المنطق ، وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بعد المنطق .

وأنت لو عرفتَ تصرُّفَ العلماء والفقهاء في مسائلهم ، ووقفتَ
على غورهم في نظرهم وغورِ صهم في استنباطهم ، وحسنِ تأويلهم
لِمَا يَرِدُ عليهم ...

وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة والكنيات المفيدة والجهات
القريبة والبعيدة ... لحققتَ نفسك ، وازدريتَ أصحابك ،
ولكان ما ذهبوا إليه وتآبعوا عليه أقلَّ في عينك من الشها عند
القمر ، ومن الحصاعند الجبل .

أليس الكِنْدِيُّ وهو عَلمٌ في أصحابك يقول في جواب مسألة
(هذا من باب عدُّ) .

فعدَّ الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم
بلا ترتيب .

حتى وضعوا له مسائلَ من هذا الشكل وغالطوه بها وأرَوْه
أنها من الفلسفة الداخلة ، فذهب عليه ذلك الوضع . فاعتقد
فيه أنه (صحيح وهو مريض العقل ، فاسد المزاج حائلُ الغريزة
مشوشُ اللب .

قالوا له : أخبرنا عن أصطِكَكَ الأجرام ، وتضاعط الأركان ؟
هل يدخل في باب وجوب الإمكان ؟ أو يخرج من باب الفُقْدان إلى

ما يخفى عن الأذهان؟

وقالوا له أيضاً : ما نسبة الحركات الطبيعية إلى الصُور
الهيولانية؟ وهل هي ملابسة للكيان في حدود النظر والبيان ، أو
مزايلة له مزايلة على غاية الاحكام؟

وقالوا له : ما تأثير فقدان الوجدان في عدم الامكان عند
امتناع الواجب من وجوبه في ظاهر ما لا وجوب له لاستحالته
في إمكان أصله؟

وعلى هذا فقد حفظ جوابه عن جميع هذا على غاية الركاكة
والضعف (والفساد) والفسالة والسُخف .

ولولا التوقي من التطويل لسردت ذلك كله ، ولقد مرّ بي
في خطّه : التفاوت في تلاشي الأشياء غير مُحاطٍ به ، لأنه يلاقي
الاختلاف في الأصول والاتفاق في الفروع ، وكلُّ ما يكون على هذا
النَّهج ، فالنَّكِرَة تُزاحم عليه المعرفة ، والمعرفة تُتناقض النَّكِرَة ،
على أن النَّكِرَة والمعرفة من باب الألبسة العسارية من ملابس
الأسرار الالهية ، لا من باب الالهية العارضة في أحوال البشرية .

ولقد حدثنا اصحابنا الصابئون عنه بما يضحك الشكلى
ويُسَمِّت العدو ويغمّ الصديق ، وما ورث هذا كله إلا من

بركات يونانَ وفوائد الفلسفة والمنطق ، ونسأل الله عزمة وتوفيقاً
نهتدي بهما إلى القول الراجح إلى التحصيل ، والفعلِ الجاري على
التعديل .

إنه سميع مجيب .

التعليق

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التحليل

قول مَتى :

« لا سبيلَ إلى معرفة الحقِّ من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشرِّ ، والحجَّة من الشبهة ، والشكِّ من اليقين ، إلاَّ بما حويناها من المنطق ، وملكناها من القيام به ، واستفدناها من واضعه على مراتبه وحدوده ، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقايقه . »

- يوضح أيَّ استطالة كان يستطيل بها مَتى وأضرابه .

وهي استطالة ربما كان لها ما يُسوِّغها لو أن كتابَ المنطق كان بضاعة نصرانية .

وَيَقْدُرُ ما كان للفلسفة اليونانية من تأثير في دعم حجاج
النصارى الأوائل في الدولة البيزنطية الشرقية والدولة الرومانية
يَقْدُرُ ما جَرَّتْ عليهم الولايات في انقسامات مذهبية وطائفية
وفكرية لا تزال تكبر وتتسع^(١).

وهكذا كانت كتب الفلسفة اليونانية التي نُقلت للمأمون من
جزيرة قبرص بقصد إفساد الثقافة العربية والايقاع بين علماءها - كما
سَجَّلَ ذلك ابنُ نباتة^(٢) - أداة لإفساد لهؤلاء المستفيدين الجدد من
أمثال مَنى وأضرابه .

يقول أبو حيان التوحيدى في تصوير البُجبوحة التي جَرَّتْها
دعاوى المنطق والفلسفة عند مَتى ومَن في طبقتة :

(١) أنظر في ذلك :

برواند رسل : حكمة الغرب ج ١ ، ترجمة د. فؤاد زكريا (المجلس
الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت : ١٩٨٣) ص ٢٤٣
وما بعدها .

(٢) أبو بكر بن نباتة : شرح العيون (المطبعة الميرية . القاهرة :
١٢٧٨ هـ) ص ١٣٠ .

« فإن متى كان يُبلى ورقةٌ بدرهمٍ مقتدريٍّ وهو سكرانٌ لا يعقل ، ويتهكَّم ، وعندَه أنه ربح ، وهو من الأخسرين أعمالاً ، الأسفلين أحوالاً »^(١) .

وكمثل ما وَّجَدَ به اليهودُ أنفسهم من خسرانٍ في المساهمة في إقامة صروح نصرانية في الدولة الرومانية .

إذ أصبحت المسيحية أشدَّ رسوخاً ، إزداد عداؤها لعقيدة العهد القديم ضراوة . فقد ذهبت إلى أن اليهود لم يعترفوا بالمسيح الذي بَشَّرَ به قدامى الأنبياء ، ومن ثم فلا بُد أن تكون شراً^(٢) .

كذلك وَّجَدَ اليهود أنفسهم في منافسة خاسرة في « التحزُّب » مع السريان ضدَّ الثقافة العربية والاسلامية .

وما كان أصدَقَه هذا الخبر الذي يُصوِّر انتكاسة يهود

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٠٧ .

(٢) حكمة الغرب ج ١ ص ٢٤٢ .

وضعفُ منافستهم في هذا الشأن ، ثم انتهازيتهم التي طبعتهم سائرَ العصور ...

فقد ذكر الوزير ابن سعدان إلى أبي حيان التوحيدي الخبر التالي :

« أوصل وهبُ بن يعيش الرُّقي اليهودي رسالةً يقول في عُرضها بعد التقريظ الطويل العريض :

إنَّ هنا طريقاً في إدراك الفلسفة مُدَلَّلةً مسلوكةً مختصرةً فسيحةً ، ليس على سالكها كَدٌّ ولا شَقٌّ في بلوغ ما يريد من الحكمة ونيل ما يطلب من السَّعادة وتحصيل الفوز في العاقبة ، وإن أصحابنا طَوَّلُوا وهَوَّلُوا وطرحوا الشوك في الطريق ، ومنعوا من الجواز عليه غشاً منهم وبخلاً ولؤمَ طباعٍ وقلةً نصحٍ وإتباعاً للطالب وحسدًا للراغب ، وذلك أنهم اتخذوا المنطق والهندسة وما دَخَلَ فيها معيشةً ومكسبةً ، ومأكلةً ومشربةً ، فصار ذلك كَسُورٍ من حديدٍ لطلاب الحكمة والمجبن للحقيقة والمتصفحين لأثناء العالم ... »^(١)

(١) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٥ .

وَيَعْلَقُ أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «...»

« قَدْ عَرَفْتُ مَذْهَبَ ابْنِ يَعِيشَ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَهُوَ جَارِي ، وَكَتَبَ هَذِهِ الرَّسَالَةَ عَلَى هَذَا الطَّرَازِ بِالْأَمْسِ إِلَى الْمَلِكِ السَّعِيدِ^(١) سَنَةَ سَبْعِينَ (بَعْدَ الثَّلَاثَاةِ) وَتَقَرَّبَ بِهَا ، وَنَفَعْتَهُ بِالْمَسْأَلَةِ وَالتَّفَقُّدِ لَهُ ، فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْفَقْرِ ، ظَاهِرُ الْخِصَاصَةِ ، لِاصْقِ بِالذَّقْعَاءِ^(٢) ... »^(٣)

وهكذا وجدَّ ابنُ يعيش (اليهودي) نفسه في منافسةٍ صعبةٍ مع (أصحابه) من أهل هذه الطبقة الطارئة على المجتمع المسلم والطارئة على الإثراء الفاحش .

وهكذا وجدَّ نفسه - وقد فاتته الحظوظُ الماديةُ يلجأ إلى

(١) هو السعيد نصر بن أحمد الساماني الذي كان حاكماً على خراسان

وما وراء النهر .

أنظر : النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري ص ص ١٥ - ١٦ .

(٢) الذقعاء : الأرض لا نبات بها ، وهي كناية عن الفقير الشديد .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٠٥ .

ما يلجأ إليه (اللوجي اليهودي) في كلِّ زمان ومكان : إغراق قنوات البريد لدى الحكام والرؤساء والمتنفذين برسائل (التقريظ الطويل العريض) .

ثم الايقاع والافساد .

وإنني - في سياق هذه القرينة - لأذهب إلى مثل ما ذهب إليه الأستاذ محمد خليفة التونسي في صدد تقديمه لكتاب « الخطر اليهودي » من أنَّ الفتنة الكبرى في الإسلام حول مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه قد كانت بفعل الدسائس الخفية لعناصر يهودية كانت تعمل في الخفاء .

يقول الأستاذ التونسي :

« وينشط عبدالله بن سبا نشاطاً من نوع آخر . فهو يثير غضبة المسلمين على خليفتهم عثمان لما أحدث من بدع . فإذا طرد من إحدى الأمصار ذهب إلى غيرها ، ونشط هذا النشاط المرعب .

وهو في تنقلاته بين العراق ومصر والشام يؤسس « الخلايا السرية » التي تنقم على عثمان وتثير النقمة عليه ، وهو يستميل إليه بعض أفاضل الصحابة من الجانب الضعيف المكشوف فيهم

ليثوروا معه .

وهو يغري الرعاع بالأعلياء ، ويفسد ثقة الجميع بعضهم ببعض ، حتى ينتهي الأمر بقتل عثمان وانقسام المسلمين أحزاباً ، ويشير الأحزاب المختصمة بعضها على بعض ويغريها بالقتال . وينشب السبئية الرعاع الحربَ بين جيش علي وأصحاب الجمل قبل أن يأمر به القواد .

وهو من ناحية أخرى ينشط لنشر المبادئ الهدامة للإسلام ، فيدعو إلى الايمان برجعة النبي بعد موته ...

وإذا قتل الامام علي أعلن أنه ينكر قتله ولو أتوه برأسه ميتاً سبعين مرّة .^(١)

وفي سياق هذه القرينة أذكر أنني رأيت يهودياً لا يزن أكثر من أربعين كيلوغراماً يقوم بإرسال رسائل تهديد إلى كل مؤسسة

(١) محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي (بروفوكولات حكام صهيون) .

ط ٣ (القاهرة : ١٩٦١ م) ص ٨٧ - ٨٨ .

علمية أو سياحية أو معجمية لا تذكر اسم إسرائيل في فلسطين
وتخفي الاسم العربي بالكامل^(١).

وإلى مثل هذا كان الاستاذ عباس محمود العقاد قد أشار في صدد
تقديمه أو قل تصديره لكتاب الخطر اليهودي :

« ... وهذه الثقة التي تسمح لصعوك من صعاليك العصابات
أن يهدّد سفير الولايات المتحدة ويكلفه أن ينذر حكومته بما سوف
يجل بها إذا خالفت هوى العصابة ، شاهد آخر من شواهد
تلك السطوة العالمية التي تملي أوامر على الرؤساء والوزراء من وراء
ستار ... »^(٢)

وقد حدّثني ، من أثق بجهاده وعلمه ، أن حجم الرسائل التي
شكّلت سيلاً يَنْصَبُ على مكتب الرئيس السّادات تكييل له المديح
والثناء ...

(١) أنظر كتابنا :

الأخطبوط الصهيوني رأي العين (مكتبة الرسالة الحديثة . عمان

١٩٨٣ م) ص ٦١ .

(٢) الخطر اليهودي ص ١٦ .

أو قُل «التقريظ الطويل العريض» من أسماء وهمية في كل مدن العالم تحته على إبرام معاهدة معسكر داود مع مجرم دير ياسين ، ومجرم فندق داود - مناحيم بيجن - كان يفوق الوصف .

ويحدث هذا الثقة أن السادات قد صدق مضمون هذه الرسائل وبدأ الشعور بالعظمة ينسرب إلى نفسه .

وهل غير يهود يمهَرُ هذه الصنعة من قديم الزمان ؟

وإنني من هذه القرينة أيضاً - لأرى أن المصادفة التي كشفتها الأحداث في مؤامرة إغراق المدينة المنورة بالناقين على عثمان رضي الله عنه ، من أهل مصر لهي بالغة الأهمية في كشف الدور اليهودي التزويري الخبيث في هذا الشأن .

ومن عجب العجب أن يكون المسلمون الأوائل قد تنبهوا إلى هذا الأمر ، على نحو لا يقبل اللبس ، ونحن في عصر دولة اليهودية ، التي تبتلع أرض البطولات الاسلامية ، لا نكاد نتبين الحقائق .

يقول الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة

٣١٤ هـ .

« كان عبدالله بن سبا يهودياً من أهل صنعاء ، وأمه سوداء ،
فأسلم زمانَ عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين ، يحاول
ضلالهم ... »

فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على
ما يريد عند أحد من أهل الشام ... فأخرجوه حتى أتى مصر ،
فاعتمر فيهم ... »

فقال لهم :

«عَجَبٌ مَنْ يَزْعَمُ أَنْ عَيْسَى يَرْجِعُ ، وَيَكْذِبُ بَانَ مُحَمَّدًا
يَرْجِعُ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

[إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ] .^(١)

فحمد أحق بالرجوع من عيسى ... فقبل ذلك عنه ، ووضع
لهم الرجعة فتكلموا فيها^(٢) .

(١) سورة القصص : ٨٥ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج ٤ صص ٣٤٠ - ٣٤١ .

ويكمل أبو جعفر الطبري قوله :

« فَبَثَّ دُعَاتِهِ وَكَاتَبَ مَنْ اسْتَفْسَدَ فِي الْأَمْصَارِ وَكَاتَبُوهُ ...
وَجَعَلُوا يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِكُتُبٍ يَضْعُونَهَا فِي عِيُوبِ وَلَاتِهِمْ ...
وَأَوْسَعُوا الْأَرْضَ إِذَاعَةً ، وَهُمْ يَرِيدُونَ غَيْرَ مَا يَظْهَرُونَ ، وَيُسْرُونَ
غَيْرَ مَا يَبْدُونَ »^(١) .

أما ما يورده أبو حيان التوحيدى عن متى من أنه كان :

« عَيْلِي وَرَقَةٌ بَدْرَهُمْ مَقْتَدِرِي وَهُوَ سَكْرَانٌ لَا يَعْقِلُ ، وَيَتَّهَمُكُمْ ،
وَعِنْدَهُ أَنَّهُ فِي رَيْحٍ ... » .

فيذكرني بما رواه ثقة مسلم من تلاميذ المستشرق اليهودي

. Bernard Lewis

(١) المصدر ذاته ج ٤ ص ٣٤١ .

يقول عنه هذا الثقة المسلم :

يأتي إلى الصف في درس التاريخ في جامعة لندن سكران ،
ثم لا يذكر شيئاً عن تاريخ العرب المسلمين إلا وساق معه نُكْتةً
سمجة سخيفة فيضحك ويضحك معه الزبانية من الكارهين لهذا
الدين وأهله .

قول أبي سعيد السيرافي :

« حَدَّثَنِي عَنِ الْمَنْطِقِ مَا تَعْنِي بِهِ ؟ فَإِنَّا إِذَا فَهَمْنَا مَرَادَكَ فِيهِ
كَانَ كَلَامِنَا مَعَكَ فِي قَبُولِ صَوَابِهِ وَرَدِّ خَطِيئَتِهِ عَلَى سَنَنِ مَرِضِي
وَطَرِيقَةِ مَعْرُوفَةٍ » .

هو بداية سحب البساط من تحت أقدام متى ووضع الامور في
نصابها الصحيح من الموضوعية .

فكلُّ دراسة لا بُدَّ لها من اصطلاحات ، وهذه ليست مسألة
الفاظ أو مسألة ثانوية ، ففي الاصطلاحات تتركز مبادئ كل علم
أو فن .

يقول أبو العباس القلقشندي :

« معرفة المصطلح هو اللازم المحتّم ، والمهمّ المقدّم »^(١) .

إنّ الكاتب قد يستخدم تعريفاً مُعيّناً ، ربما كان غير واضح في أذهان القراء أو أنه يريد أن ينحو به منحىً خاصاً ليعطي دلالة معيّنة^(٢) .

و « التعريف عملية منتظمة . وحتى تعرف مصطلحاً ، ينبغي أن يكون مع نوعه ، وبعد ذلك يجري فصله عن أفراد النوع باعطائه خصائص وميزات فريدة ، وذلك للتفريق بينه

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، وزارة الثقافة والأرشاد القومي ، مطابع كوستا توماس وشركاه : ١٩٦٣ م) ، ج ١ ص ٧ .

(٢) أنظر كتابنا :

فن الكتابة والتعبير ، ط ١ (مكتبة الأقصى - عمان : ١٩٨١ م) ص ١١٧ .

وبين غيره»^(١).

وكلما كان المصطلح دقيقاً محكماً ، كانت الصلة بين العلماء
أوثق وأقرب ، وكان مجال الخلاف أقلّ .

يقول ليبنتز :

« إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى خلاف على اللفاظ
ودلالاتها »^(٢).

وها هو امتي تختلف قدماء عند التعريف .

فلقد قال :

« أعني به أنه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح

(١) James R. Kreuzer & Lee Cogan, studies in

Prose Writing (Holt Inc. New York, 1963),

p. 118

(٢) د. إبراهيم بيومي مذكور : في اللغة والادب . (مجلة إقرأ عدد

٣٣٧ (١٩٧١ م)

الكلام من سقيمه ، وفاسدُ المعنى من صالحة . كالميزان ، فإني أعرف به الرُّجحان من النقصان ، والشائل من الجانح^(١) .

فقال أبو سعيد :

« أخطأتَ ، لأنَّ صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم
المألوف والاعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية ؛ وفاسد
المعنى من صالحه يُعرَفُ بالعقل ، إذا كنا نبحث بالعقل ؛
وَهَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمن لك
بمعرفة الموزون أيُّما هو حديد أو ذهب أو شبة أو رصاص ؟
فأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة الموزون ، وإلى
معرفة قيمته ، وسائر صفاته التي يطول عدُّها ؛ فعلى هذا
لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان
اجتهادك ، إلاَّ نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيت عليك
وجوه ... »

(١) الشائل : المرفوع . الجانح : المائل .

ثم يذهب أبو سعيد في تفصيل هذه الوجوه ، على نحو لو
أراد أن يُعِنْتَ أبا بشر بالجدل ، لتركه يُغصُّ (بصيغة المجهول)
بريقه ...

ثم ينتقل أبو سعيد إلى رأس هذا الجدل وأسه ...

يقول :

« ودع هذا ؛ إذا كان المنطق وَاَضَعَهُ رَجُلٌ مِنْ يُونَانَ عَلَى
لُغَةِ أَهْلِهَا وَاصْطِلَاحِهِمْ عَلَيْهَا ، وَمَا يَتَعَارَفُونَهُ بِهَا مِنْ أَرْسُومِهَا
وَصِفَاتِهَا ، فَمَنْ أَيْنَ يَلْزِمُ التُّرْكَ وَالهِنْدَ وَالْفُرسَ وَالْعَرَبَ أَنْ
يَنْظُرُوا فِيهِ وَيَتَخَذُوهُ قَاضِيًا وَحَكَمًا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ، مَا شَهِدَ لَهُمْ
بِهِ قَبْلُوه ، وَمَا أَنْكَرَهُ رَفْضُوه ؟ »

وتاريخ الحضارة اليونانية يذهب إلى ما ذهب إليه أبو سعيد
السيرافي بحسن تفكيره وصفاء استنتاجه .

لقد وضع أرسطو مناهج منطقته وقواعد النظر الادبي
والفلسفي ، مستنداً إلى تراث اليونان وسجلات الدولة اليونانية ،
بحيث أن مزاج اللغة اليونية كان قد فرض نفسه على منحى
التفكير .

ثم يُعلّق أبو سعيد على مثال ضربه أبو بشر فقال :

« ولكن ليس الامر هكذا ، ولقد مَوَّهت بهذا المثال ، ولكم عادة بمثل هذا التمويه » .

وهذه إشارة إلى ما كان من نجاح هؤلاء في التمويه على الغفل والاعراء وضعاف العقول - كمثل ما حدثناه ابن قتيبة في مقدمة كتابه (أدب الكاتب) .

ثم يستدرجه أبو سعيد إلى حقيقة النوايا التي يَكْنُهَا (أبو بشر) :

« أذت إذا لست تدعونا إلى علم المنطق ، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية ، وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها ؟ وقد عَفَتْ منذ زمان طويل ، وبادَ أهلها ، وانقرض القومُ الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريدها ... على أنك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحوّلة بالنقل ، من لغة يونان إلى لغةٍ أخرى سريانية ... ثم مر هذه إلى أخرى عربية . »

قال مَتى :

« يونان وإن بادت مع لغتها ، فإن الترجمة حفظت الاغراض وأدّت المعاني واخلصت الحقائق » .

قال ابو سعيد :

« إذا سلمنا لك ان الترجمة صدقت وما كذبت ، وقوّمتُ وما حرّفت ، ووزنت وما جزفت ، وانها ما التاثت ولا حافت ، ولا تقصت ولا زادت ، ولا قدّمت ولا اخرت ، ولا اخلّت بمعنى الخاصّ والعامّ ، ولا بأخصّ الخاصّ ، ولا بأعمّ العامّ - وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو في طبائع اللغات ، ولا في مقادير المعاني ، فكانك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما ابرزوه » .

والثقات في اللغة اليونانية وآدابها وتقدها ، من العلماء الأوروبيين ، يذهبون في أرسو ومنطقه وأفكاره ودلالاتها إلى مثل ما ذهب إليه أبو سعيد السيرافي بحسن تفكيره وصفاء قريحته .

يقول الاستاذان في جامعة اكسفورد :

M. Winterbotto و D. A. Russel

« ثمة عوامل كثيرة تجعل من كتاب الشعر لأرسطو عملاً قابلاً لسوء التأويل . ويبدو أن سوء التأويل قد أسهم أيضاً في تطور الدراسات الجمالية - في بعض العصور - مثلما فعل الفهم الصحيح له . »

ثم يُجمل هذان الأسباب التي تجعل من نصوص أرسطو مادة قابلة لسوء التأويل منها وعلى رأسها :

« أن فكر أرسطو ليس من النوع المُسطَّح الذي يمكن فهمه حتى في اللغة اليونانية ذاتها . إنَّ الصعوبة التي تَجَبَّهُ الذي يحذق اليونانية في تتبع مقاصد أرسطو ، هي مثل الصعوبة التي يجدها ، الذي يعرف اللغة الانجليزية في تتبع أفكار (هيوم)
« Hume »^(١)

Ancient Literary Criticism, edited by D. A. (١)
Russel and M. Winter Bottam (The Clarendon
Press, Oxford, 1972), p. 85.

ثم ينتقل أبو سعيد السيرافي من بسط المقدمات ، إلى طرح أسئلة على أبي بشر كي يقوم الأخير باستخراجها وفق ميزان المنطق يقول :

« ودع هذا ؛ أسالك عن حرف واحد ، وهو دائر في كلام العرب ، ومعانيه متميزة عند أهل العقل ، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تُدِلُّ به وتباهي بتفخيمه ، وهو (الواو) ما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبهت متى وقال : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ... »

ومثل هذا الموقف الذي حشره (ابا بشر) ، أبو سعيد السيرافي ، فيه يكشف أنّ هؤلاء إنما كانوا يرددون « تلفيقات وتلزيقات » كمثل ما قرّره أبو حيان التوحيدى عن إخوان الصفا أو قل هي بلغة العصر كليشيهات (Clichés) .

ولو أن هذا الذي يباهي بأرسطو كان قد فقه فكر أرسطو بالكلية ، ولو كان باللغة السريانية - لكان حرياً به أن يُجيب عن أي مسألة في اللغة العربية ، كان لها مقابل في السريانية أم لم يكن .

ثم إذا كان هذا وأضرابه لا يعرفون إلاّ مثل هذه التلزيقات

والكليشيات ، فمن أيُّ بابٍ 'حق' لهم الحُكْمُ على اللغة العربية
ونصوصها وافكارها ؟

وليس مع الواو وحدها يقف ابو بشر مبهوراً ، ولكن مع
عشرات الامثلة من اللغة العربية وأقيستها وطرائق بنائها .

ولذلك يخلص معه أبو سعيد إلى مثل هذا التقرير الذي يختم
عليهم إلى ابد الأبدین :

« ثم انتم هؤلاء في منطقتكم على نقص ظاهر ، لأنكم لا تفون
بالكتب ولا هي مشروحة ، فتدعون الشعر ولا تعرفونه ،
وتذكرون الخطابة وأنتم عنها في منقطع التراب . وقد سمعتُ
قائلكم يقول :

الحاجة ماسة إلى كتاب البرهان . فإن كان كما قال فلم
تُقطع الزمانُ بما قبله من الكتب ، وإن كانت الحاجة قد مسّت
إلى ما قبل البرهان ، فهي أيضاً ماسةٌ إلى ما بعد البرهان ،
وإلاّ فلم تُصنّف ما لا يُحتاج إليه ويستغنى عنه .

هذا كله تخليط وزرّق (بفتح الزاي المعجمة وتسكين الراء
المهملة) وتهويل ورعد وبرق .

وإنما بودكم أن تشغلوا جاهلاً ، وتستذلُّوا عزيزاً ؟ وغايتكم
أن تهوِّلوا بالجنس ، والنوع ، والخاصة ، والفصل ، والعَرَض ،
والشخص ، وتقولوا :

الهِلِّيَّة والأينِيَّة والمَاهِيَّة والكيفِيَّة والكِيَّة والذاتِيَّة والعَرَضِيَّة
والجوهرِيَّة والهِيُولِيَّة والصُّورِيَّة والأَيْسِيَّة والليسيَّة والنفسيَّة ، ثم
تتطاولون فتقولون :

(جئنا بالسحر الحلال) ... »

ثم يُعَقَّبُ على ذلك أبو سعيد السيرافي :

« وهذه كلُّها خرافات وتُرَهات ، ومغالق وشبكات ؛ ومَن
جاد عقله وحسن تمييزه ولطف نظره وثقَبَ رأيه ، وأنارت
نفسه استغنى عن هذا كله - بعون الله وفضله - وجودةُ العقل
وحسنُ التمييز ولطفُ النظر وثقوبُ الرأي وإنارةُ النفس من منائح
الله الهنيئة ، ومواهبه السنية ، يختصُّ بها من يشاء من عباده . وما
أعرف لاستطالتكم بالمنطق وجهاً ... »

ثم ها هو ، بعد هذه الجولة المفصلة يذهب إلى مثل ما
ذهب إليه ابن قتيبة في مقدمة كتاب « أدب الكاتب » ، فيقول

(أبو سعيد) :

« و أنت لو عرفتَ تَصْرُفَ العِلماءِ و الفِقهَاءِ في مَسَائِلِهِمْ ،
و وُقِفْتَ عَلى غَوْرِهِمْ في نَظَرِهِمْ و غَوْرِهِمْ في اسْتِنْبَاطِهِمْ ،
و حَسَنَ تَأْوِيلِهِمْ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ ، و سَعَةَ تَشْقِيقِهِمْ لِلوُجُوهِ
المُحْتَمَلَةِ ، و الكِنَايَاتِ المَفِيدَةِ ، و الجِهَاتِ القَرِيبَةِ و البَعِيدَةِ ،
لِحَقَرَتِ نَفْسُكَ ، و ازْدَرَيْتَ اصْحَابَكَ ، و لَكَانَ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ
و تَابَعُوا عَلَيْهِ اَقْلًا في عَيْنِكَ مِنَ السُّهَاءِ^(١) عِنْدَ القَمَرِ ، و مِنَ الحِصَا
عِنْدَ الجَبَلِ . »

و بذلك يَكُونُ الجَاحِظُ و ابنُ قَتَيْبَةَ و أَبُو سَعِيدِ السِّيرَافِيِّ عَلى
عَلى ذَاتِ الدَّرَجَةِ مِنَ « الحِصَانَةِ » الثَّقَافِيَةِ ضِدَّ التِّيَارَاتِ « المِصْلِحِيَةِ »
و « المُفْتَعَلَةِ » في السَّاحَةِ الثَّقَافِيَةِ العَرَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ - مَعَ و عِيهِمْ
الكَامِلِ عَلَيْهَا ، واطْلَاعِهِمْ عَلى جَمِيعِ مَا يُتْرَجَمُ وَيَهْتَدَبُ و يُلَخَّصُ في
المَوْضُوعَاتِ المُخْتَلِفَةِ .

(١) السهأ : كوكب صغير خفي الضوء في نبات نعش الكبرى أو
الصفري .

وفي المثل : « أربها السهأ و تريني القمر » .
المعجم الوسيط (المكتبة العلمية طهران) مادة : سهأ .

وهي مرحلة « امتلاء » حضاري تظل تنبتُ « نباتاً » داخلياً
في دائرة التراث العربي والثقافة الاسلامية .

ثم هي تنتقي ما تظنه ذا فائدة ، وذا قيمة ، وله معنى وبه
إضافة فعلية إلى التراث العربي بخاصة ... والتراث الانساني
بعامة ...

وهذا في انسجام تام مع ما سبق وقرره القرآن الكريم في
قوله تعالى :

[الذين يستمعون القولَ فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ... الآية]

سورة الزمر : ١٨ .

ويعرّف ابو حيان التوحيدي بأبي سعيد السيرافي مقتبساً قول
علي بن عيسى قال :

« مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يومَ المناظرة
اربعون سنة ، وقد عَبَثَ الشَّيْبُ بِلَهَازِمِهِ »^(١) مع السَّمْتِ والوَقَارِ

(١) الالهازم : جمع لهزيمة بكسر اللام ، وهي مجتمع اللحم بين الماضغ
والأذن . ويريد هنا الشعر النابت عليهما .

والدين والجيد ، وهذا شعار اهل الفضل والتقدم ، وقيل من
من تظاهر به ، او تحلى بحليته إلاّ جلّ في العيون ،
وعظّم في النفوس ، واحبّته القلوب ، وجرت بمدحه
الأسنة ،^(١) .

وكانت وفاة أبي سعيد السيرافي في رجب سنة ثمان وستين
وثلاثمائة^(٢) .

- تم بحمد الله -

(١) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) المصدر ذاته ج ١ ص ١٣١ .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع

المصادر :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - ابن الأثير ، ابو الفتح ضياء الدين :
المثل السائر .
(مطبعة الحلبي . القاهرة : ١٩٣٤م)
- ٣ - ابن الطقطقي :
الفخري في الآداب السلطانية .
(مطبعة محمد علي صبيح . القاهرة :
١٩٦٢ م) .

٤ - ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم :

أدب الكاتب .

تحقيق : محمد الدالي .

(مؤسسة الرسالة . بيروت :

١٩٨٢ م) .

٥ - ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم :

الشعر والشعراء .

تحقيق د . مفيد قبيحة .

(دار الكتب العلمية ، بيروت :

١٩٨١ م) .

٦ - ابن نباتة ، أبو بكر : سرح العيون .

(المطبعة الميرية . القاهرة :

١٢٧٨ هـ) .

٧ - التوحيدى ، أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة .

تصحيح : أحمد أمين وأحمد الزين .

(المكتبة العصرية . بيروت - صيدا

مُصوّر عن طبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر . القاهرة :

١٩٥٣ م)

٨ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر :

البيان والتبيين .

تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط٤

(المجمع العلمي العربي الاسلامي .

بيروت . بدون تاريخ) .

٩ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر :

كتاب الحيوان .

(مطبعة الحلبي . القاهرة : ١٩٣٨

١٩٤٥ م) .

١٠ - الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير :

تاريخ الرسل والملوك .

تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم .

ج ٣ - ٧ (دار المعارف . القاهرة :

٩١٦٢ - ١٩٦٦ م) .

١١ - القلقشندي ، ابو العباس : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ج١

(وزارة الثقافة والارشاد القومي .

مطابع كوستا توماس وشركاه :

١٩٦٣ م) .

- ١٢ - المقدسي : أحسن التقاسيم .
(ليدن : ١٩٠٦ م) .

المراجع :

- ١ - د. إبراهيم بيومي مذكور: في اللغة والأدب .
(مجلة إقرأ عدد ٣٣٧ - ١٩٧١ م) .
- ٢ - برتراندرسل : حكمة الغرب .
ترجمة د. فؤاد زكريا ج ١ .
(المجلس الوطني للثقافة والفنون
والآداب . الكويت : ١٩٨٣ م) .
- ٣ - د. سيد نوفل : البلاغة العربية في دور نشأتها .
(مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة :
١٩٤٨ م) .
- ٤ - د. عبد الحلیم محمود : الإسلام والعلم :
(مجلة البلاغ . عدد ٣٧٦ تاريخ :
١٧ - ١٠ - ١٩٧٦ م) .

٥ - د. عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة
(مطبعة السريان ، بغداد : ١٩٤٥ م) .

٦ - محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي .
(بروقوكولات حكماء صهيون)
ط ٣ (القاهرة : ١٩٦١ م) .

٧ - محمد علي أبو حمدة : الاضطبوط الصهيوني رأي العين .
(مكتبة الرسالة الحديثة . عمان :
١٩٨٣ م) .

٨ - محمد علي أبو حمدة : فن الكتابة والتعبير .
(مكتبة الأقصى عمان : ١٩٨١ م) .

٩ - محمد علي أبو حمدة : النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري
في القرن الرابع الهجري .
(دار العربية للطباعة والنشر
والتوزيع . بيروت ١٩٦٩ م) .

١٠ - د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب .
(دار نهضة مصر للطبع والنشر .
القاهرة . بدون تاريخ) .

١١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط .
(المكتبة العلمية : طهران) .

المراجع الاجنبية :

- 1) Kreuzer, J. R. & Cogan, Lee, Studies in prose Writing (Holt In. New York, 1963).
- 2) Russel, D. A & M. Winter Bottom (editors), Ancient Literary Criticism. (The Clarendon Press, Oxford 1972).

كتب مطبوعة للمؤلف

- ١ - أبو القاسم الأمدي وكتاب الموازنة بين الطائين : ابي تمام والبحري . دارالعربية - بيروت .
- ٢ - النقد الأدبي حول أبي تمام والبحري في القرن الرابع الهجري . دار العربية - بيروت .
- ٣ - الأمثال العامية الفلسطينية ط ٢ . مكتبة المحتسب - عمان .
- ٤ - الفكر الاسلامي وطرائق النقد الأدبي . ط ٢ . دار الفرقان للنشر - عمان .
- ٥ - في ظلال الفكر الاسلامي ط ٢ - عمان (نقد) .
- ٦ - نحو رؤية إسلامية - عمان (نقد) .
- ٧ - في النقد الأدبي التطبيقي - عمان (نقد) .

٨ - ضفائر من تراثنا الشعبي - مطبعة شوقي ومكتبتها - عمان .

٩ - الطريق إلى الجامعة - عمان (نفذ) .

١٠ - من أساليب البيان في القرآن الكريم . ط ٢ . مكتبة الرسالة الحديثة - عمان .

١١ - فن الكتابة والتعبير . مكتبة الأقصى - عمان .

١٢ - المسجد الأقصى المبارك وما يتهدده من حفريات اليهود .
(سلسلة مكتبة الأقصى المبارك ١) مكتبة الرسالة الحديثة
- عمان .

١٣ - مباحث في الهجمة اليهودية على الطابع الإسلامي لمدينة بيت المقدس .
(سلسلة مكتبة الأقصى المبارك ٢) مكتبة الرسالة الحديثة - عمان .

١٤ - في التذوق الجمالي لقصيدة بانة سعاد لكعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ (سلسلة النقد الأدبي التطبيقي ١) .
ط ٢ . مكتبة الأقصى - عمان .

١٥ - في التذوق الجمالي للامية العرب ، للشنفرى (سلسلة النقد الأدبي التطبيقي ٢) - مكتبة الأقصى - عمان .

١٦ - في التذوق الجمالي للاية القرآنية الكريمة : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ... الآية) (سلسلة النقد الأدبي التطبيقي ٣) مكتبة الأقصى - عمان .

١٧ - في التذوق الجمالي لخطبة النبي ﷺ في حجّة الوداع .
(سلسلة النقد الادبي التطبيقي ٥) مكتبة الرسالة الحديثة
- عمان .

١٨ - في التذوق الجمالي لخطبة زياد ابن أبيه الخطبة البتراء (سلسلة
النقد الأدبي التطبيقي ٦) مكتبة الاقصى . عمان .

١٩ - في التذوق الجمالي للآيات العشر الاولى مفتتح سورة الاسراء .
(سلسلة النقد الأدبي التطبيقي ٧) دار الفرقان للنشر
- عمان .

٢٠ - في التذوق الجمالي لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح عمورية .
(سلسلة النقد الادبي التطبيقي ١٠) دار الجيل - بيروت .
مكتبة المحتسب - عمان .

٢١ - الداني في مهارات اللغة العربية . مكتبة الرسالة الحديثة
- عمان .

٢٢ - الاخطبوط الصهيوني رأي العين . مكتبة الرسالة الحديثة
- عمان .

٢٣ - في التذوق الجمالي لقصيدة أبي الطيب المتنبي على قدر اهل
العزم تأتي العزائم (سلسلة النقد الأدبي التطبيقي ١١) مكتبة
المحتسب - عمان . دار الجيل - بيروت .

رَفْعُ

عبد الرحمن النخدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنها الفردوس

www.moswarat.com